الأستاذة تاجي رمال

صانع الأجيال في سنين عطائه وركن أساس في بناء الأمم.

العلمُ....؟ وما أدراكَ ما العلمْ...؟

العلمُ يرفعُ بيوتًا لا عمادَ لها والجهلُ يهدمُ بيوتَ العزِّ والشّرفِ

ذلكَ أنَّ العلمَ نورٌ والجهلَ ظلامٌ، العلمُ طوّر العالمَ وجمعَ أوصالَه، وجعلَه كقريةٍ صغيرةٍ، يتواصلُ أفرادُها في ما بينَهم...

فهل هذا إلاّ ثمرةُ العلمِ...؟

بالعلمِ ارتقى الإنسانُ وبلغَ الذروةَ في المعرفةِ، فارتقى إلى المجراتِ ليعرفَ أسرارَها، وسبرَ غورِ البحارِ ليعلمَ خفاياها.

ومن الذي ساهمَ في نشرِ العلمِ وتوسعةِ أفاقِه...؟

إنّه المعلمُ وريثُ الأنبياءِ والرسلِ والمصلحِين.

ولا عجبَ أن يكونَ المعلمَ الأولَ للإنسانِ هو اللهُ تعالى جلَّ جلاله (وعلّم آدمَ الأسماءَ كلَّها).

وعندما هبطَ الإنسانُ إلى الأرضِ من الجنانِ، لم يتركْه اللهُ تعالى بل هداه وعلّمَه (فإمّا يأتينَكُم مني هدى فمن اتبعَ هدايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون).

ومن هنا يتوالى إرسالُ الأنبياءِ والمرسلين لهدايةِ الإنسانِ والارتقاءِ به إلى مستوى الملائكةِ المقربين.

فكلُّ نبيٍّ هو معلمٌ يهدي إلى الرّشدِ وإلى الطريقِ المستقيمِ...

وعندما انقطعَ إرسالُ الأنبياءِ بعدَ خاتمِهم الّذي أُرسلَ رحمةً للعالمين، توالى المعلمون في تولّي هذه المهمةِ الصّعبةِ، فلو تمكّنَ شخصٌ على سبيلِ المثالِ من أن يعلّمَ شخصًا القراءةَ والكتابةَ فكأنّما أحيا مؤسسةً تعليميّةً بأكملِها، ذلك لأنَّ من أحيا نفسًا فكأنّما أحيا الناسَ جميعًا.

وهل العلمُ إلا حياةٌ...؟

من هنا كان الحثُّ على التأكيدِ على أهميةِ المعلمِ، والدعوةِ إلى تقديرِهِ وتبجيلِه، ورفعِه إلى مصافِ الرّسلِ والأنبياءِ.

قمْ للمعلمِ وفّهِ التبجيلَ كاد المعلمُ أن يكونَ رسولا

لأنّ احترامَ المعلمِ واجبٌ، واكرامَه ضرورةٌ اجتماعيةٌ.

فهل أشرفُ ممن يبنونَ النفوسَ القويمةَ بنورِ العلمِ والحقِ، وينشئوا العقولَ على الهدى والمعارفِ والأخلاقِ.

وسقراطُ المعلمُ اليونانيُ الأولُ، فضّلَ الموتَ بشرفٍ على حياةٍ ذليلةٍ مليئةٍ بالغباءِ والجهلِ، امتُهِنَت فيها الحقيقةُ ومن يمثلُها.

المعلمُ يربي أجيالَه على القيمِ الاجتماعيةِ النبيلةِ (كالصدقِ والشجاعةِ والفضيلةِ والإنسانيةِ ونصرةِ الحقِّ والوقوفِ في وجهِ الباطلِ والأخلاقِ الحسنةِ...)

لذلك قيل:

إنّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيَت فإنْ هُمُ ذهبَت أخلاقُهم ذهبُوا

وإذا أصيبَ القومُ في أخلاقِهم فأقمْ عليهم مأتمًا وعويلا

فالأممُ إذا انهارَت أخلاقُ أبنائِها واضمحَلّت روحُ الإنسانيةِ فيها وتلاشَت القيمُ، صارَت عرضةً للزوالِ والضياعِ.

وعلى مرِّ الأجيالِ كانت هناك لفتةُ نظرٍ لأهميةِ الرسالةِ الّتي يضطلعُ بها المعلمُ، وأثرِها على الصعيدِين الخُلُقِي والوطني. تصوّرْ مجتمعًا يخلو من المعلمين حينها نجدُ أنفسَنا في مجتمعٍ جلَّ أفرادِه من المشردِين والمتسولِين والمجرمِين والمنحرفِين.

فالمعلمُ هو ذلكَ الجنديُ المقدامُ، يحاربُ الأميةَ والغباءَ، ويطردُ شبحَ الذلِ واليأسِ والتشاؤمِ من نفوسِ الناشئةِ، ويتسلّحُ بالعلمِ والثقَةِ والأملِ.

هو يدٌّ تنثرُ بذورَ المحبةِ والجمالِ في النفوسِ الّتي تتفاعلُ بذورُها لتعطيَ ثمارًا وأزهارًا.

المعلمُ هو المصباحُ المضيءُ الّذي يهدي أجيالَنا سواءَ السبيلِ في مسيرتِهم على دروبِ الخيرِ والمجدِ والكمالِ، فيسودُ النّورُ والإشعاعُ في مواكبِ العصورِ.

هو رسولٌ يوقظُ المشاعرَ ويحيي العقولَ، ويرقي الإدراكَ، ويشعلُ المصباحَ المنطفئَ، يصوغُ فلذاتِ الأكبادِ في مصنعِه، ويزودُها بأفضلِ إمداداتِ المعرفةِ والفضيلةِ. يعملُ بلا ملٍ ويجدُّ بلا كللٍ، يعطي من نفسِه وروحِه وعقلِه ما يفوقُ العطاءُ، ليجعلَ من الطفولةِ الغضّةِ شبابًا للغدِ، وللشبابِ اليافعِ قوى للنفسِ ونشاطًا للجسدِ وبسمةً مشرقةً على ثغرِ الزّمانِ الأغرّ. ويظلُّ يكافحُ حتى ينطفئَ سراجُ زيتِه، ويخبو مشعلُ أنوارِه الساطعةِ، ولكن ذكرَه لن يُمحى من القلوبِ والعقولِ.

فمهنةُ التعليمِ شاقةٌ جدًا، تتطلبُ جهودًا مضنيةً، وتضحياتٍ متواصلةً، تحرمُ صاحبَها التّمتعَ بمباهجِ الحياةِ ومسراتِها، فتنتهي سنُونُ عطائِه وأجملُ سنواتِ عمرِه دونَ أن يشعرَ، وكأنما كان يعيش حلمًا من الأحلامِ الجميلةِ.

فالمعلمُ لا يكادُ ينتهي من تحضيرِ الدروسِ، وتصحيحِ الفروضِ، حتى يشرعُ في البحثِ والتّنقيبِ والبحثِ لتقديمِ معلوماتٍ جديدةٍ إلى تلاميذِه الّذين ينتظرُونه بلهفةٍ وشوقٍ على مقاعدِ الدّراسةِ.

ورسالةُ المعلمِ رسالةُ تبشيرٍ وإظهارٍ للحقيقةِ، وهيَ أشرفُ المهنِ لأنّها أبعدُها عن الأنانيةِ، وأشدُّها إنكارًا للذاتِ.

فهي الوسيلةُ المهمةُ لتنويرِ الأذهانِ وتثقيفِ العقولِ، وإبرازِ سرائرِ العبقريةِ والنبوغِ في نفوسِ الناشئةِ.

والتعليمُ وحدَه قادرٌ على تفجيرِ الطاقاتِ المبدعةِ لتضيءَ سبلَ الحياةِ، وهّاجةً مشعّةً بالخيرِ والحقِ، لا تطفئُهَا نارُ الدهورِ، ولا تضعفُ جذوتَها عواصفُ الطبيعةِ في تألقِها سرُّ الإنسانيةِ وفي ذراتِها سرُّ بقائِها وديمومتِها.

وقد قيل:" نابغو الأمةِ مخبؤون في مجموعِها، ولا يظهرُهم إلاَّ التعليم".

فالمعلمُ مدرسةٌ يتخرجُ منها الرجالاتُ العظامُ والقادةُ الكبارُ وصانعو التاريخِ الّذين بهم يكون الوطنُ وبغيرِهم لا يكون. إذ في هذا المصنعِ العجيبِ تتشكّلُ الرّجولةُ الحقةُ والمواطنيةُ الصادقةُ والانضباطيةُ الصحيحةُ ومن بين أكنافِه تنشأُ النفوسُ قويةَ العزمِ فولاذيةَ الإرادةِ، تتفجرُ في كوامنِها طاقات من الخلق والقدرة والابداع.

إنَّ احترام المعلم وتقديره لمن الأهمية بمكان، لأنّه (مربي الروح والروح جوهر) وهل أسمى وأشرف ممن يحمل على منكبيه مسؤوليات عظيمة؟ وهل أجل وأعظم ممن يؤدي رسالة أمّة وهداية وطن فيبني النفوس وينشئ العقول!؟

ولا يقتصر هذا التبجيل على إنصافه وإعطائه حقوقه كاملة غير منقوصة فحسب. بل يجب احترام المعلم وتقديره لإدخال الفرح إلى قلبه وترويح عناء عمل سنوات من العمر قضاها في التعليم وتربية الأجيال على حب الخير والفضيلة ومكارم الأخلاق.

وأخيرًا فإنَّ التعليم ليس وسيلة للكسب المادي إنّما هو رسالة خالدة يتوقف عليها مصير الأمم والأوطان، فتدرك إمّا زوالاً لا بقاء بعده، وإمّا بقاءً لا فناء بعده.

ويعمل هؤلاء المعلمون الّذين يغوصون في أعماق النفوس لاستخراج الكنوز الدفينة وإظهارها برّاقة إلى الوجود، فتندفع عجلة التّطور الأخلاقي والإنساني سريعًا إلى الأمام.

ومهما بالغنا في مدحهم فلن نستطيع أن نفيهم حقَّهم، فالكلمات تقف خجولة أمامهم: "فحسبهم جزاءً وفخرًا أنّ العالم من صنع أيديهم".

وهم الّذين في محرابهم تركع قوافي الشعراء وتسجد أقلام الأدباء وتتناثر الحروف وتضمحل الكلمات ويبقى عطاؤهم وحده الناطق.

أيّها المعلمون الأجلاء... يا من سامرتم السنين وصادقتم الساعات ها هو يراعي ينحني كلما علت زغاريد الحرف فوق الدفاتر، وها هو يراعي يحوك أسماءكم بحروف من ذهب فوق منول الامتنان وعرفان الجميل أيا صانعي الأجيال بوركتم وبورك عطاؤكم.

أيّها المعلمون أنتم القادة والسادة، ستظل أسماؤكم تخفق في أديم الكتب نبضًا وشعرًا وحياة، وأنتم في أعمار أبنائكم اللحظات السّعيدة، وكلامكم شوق الحكايات الجميلة.

أنتم الأحلى والأجمل والأبهى لكم كل الثناء وكل الحبّ وكل الدعاء.